من السكان لم تكن منتجة » . كما يرى ان « النظام الاقطاعي العثماني قد أعاق تطور المدن العربية ». وفي أواخر القرن السابع عشر دخلت الامبراطورية أزمة خطيرة جدا فقد تدهور الاقتصاد ودب الفساد في أجهزة الدولة وخرجت الاقاليم عن طاعة الحكومة المركزية ، وفقد الجيش المتفسخ قدرته القتالية ، وانحطت الثقافة . ويقول لوتسكي ان هذه الازمة الداخلية « كانت نذيرا بالتدهور الذي أخذ يدب في كافة انحائها منذ القرن الثامن عشر » . فقد أفضت الانفصالية الاقطاعية والنزاعات الى انحلال الدولة العثمانية المترامية الاطراف ، التي لم يكن نشؤها نتيجة للتطور الاقتصادي ، وانما كنتيجة للاحتياجات العسكرية للنظام الاقطاعي العثماني في مجرى حروب استهدفت السلب والنهب . وهو يلاحظ ان نشوءها كان كسائر دول اوروبا الشرقية ذوات القوميات المتعددة في اطار التشكيلة الاجتماعية الاقطاعية قبل تكون الامم فيها وقبل القضاء على التفتت الاقطاعي ، لهذا فان توحيد الشعوب المختلفة والتي لها مستويات حضارية متباينة بصورة مفتعلة في دولة واسعة ، محاولة ليس من شأنها ان تعيش طويلا . وهكذا فقد اودت التناقضات بين التركيبة الاقطاعية للمجتمع بميوله المتنافرة والشكل المركزي للحكم الى اضعاف الامبراطورية ، وقد ادى هذا الاستعباد التركي الاقطاعي الى قيام العديد من الانتفاضات الشعبية ضد الامبراطورية وهي الانتفاضات التي كانت تجليا للتناقض الطبقي الاساسي بين الاقطاعيين والفلاحين، وكما كانت ، من جهة اخرى ، انعكاسا للتناقض القومي بين المستعبدين والشعوب المستعبدة . ويقسم لوتسكي هذه الانتفاضات الى نوعين : حركات شعبية موجهة ضد الاقطاع في تركيا نفسها وتلاقي بنفس الوقت سندا لها من قبل الشعوب المضطهدة ، وقد اصطبغت هذه الحركات بصبغة طبقية في معظم الاحيان ، ومن جهة اخرى ، حركات الشعوب المضطهدة الخاضعة للحكم العثماني ولها طابع الحركات التحررية الوطنية . ويرى لوتسكي ان هذه الانتفاضات المتعددة والنزاعات الاقطاعية قد أفضت الى اضعاف الامبراطورية فسادت الفوضى في أرجاء ممتلكات الباب العالي ، وهزت هذه الحركات الشعبية والانتفاضات الجماهيرية العربية واليونانية والكردية والارمنية والسلافية الاركان المتداعية من الامبراطورية وعجلت بانهيارها. ويشرع لوتسكي بدءا من الفصل الثاني بتناول تاريخ كل قطر عربي على حدة خلال فترة محددة ، او هو يتناول مجموعة البلدان التي تشكل وضعا جغرافيا متجاورا ، كالشرق العربي ، او سورية الطبيعية او الجزيرة العربية .. الخ . ونجد تاريخ فلسطين خلال القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين موزع على فصول أربعة هي : الفصل الرابع ، الثامن ، التاسع ، والرابع والعشرون، ويعود لوتسكي ليتناول فلسطين مع بقية الاقطار العربية بشكل عام في الفصل الختامي لفترة الحرب العالمية الاولى .

وبصدد حملة نابليون على سورية وفلسطين ، يرى لوتسكي ان الاطماع الفرنسية بالمنطقة كانت ضمن برامج وحسابات نابليون البعيدة المدى ، بحكم وقوع المنطقة في شبكة المطامع السياسية الدولية ، فقام نابليون بحملته الشهيرة على سورية (١٧٩٩) ، الا أن تقديراته كانت خاطئة ولم تستطع جيوشه ان تترك آثارا عميقة في سورية ولم يستطع الفرنسيون تجاوز عكا . وكانوا قد احتلوا فلسطين فقط فاكتفوا بسواحلها وبسهل مرج ابن عامر واستقاموا فيها لثلاثة اشهر فقط ، غادروا بعدها البلاد . ويلاحظ لوتسكي ، كيف ان احمد باشا الجزار والي عكا قد استعاد سطوته وامتدت ، بما عزاه لنفسه من شرف الانتصار على نابليون ، وكيف سعى الى وضع سورية برمتها تحت سلطته. ويلاحظ ايضا ان وفاة الجزار ١٨٠٤ كان من شأنها ان تزيد الفوضى الاقطاعية في البلاد ، لانحلال قبضته الحديدية ، غير ان سليمان باشا قائد جيش الجزار في عكا استطاع بعد نزاعات استمرت أشهرا أن يحكم جنوب سورية مدة خمس عشرة سنة (١٨٠٤ — ١٨١٩) . وقد شهدت فترة حكم سليمان باشا لاضطرابات وحروب الباشاوات ضد الوهابيين ، وكذلك ضد الباشاوات المجاورين من عكا وطرابلس وحلب ، كما استولى ، من جهة أخرى ، على السلطة في يافا شخص يدعى محمد آغا كانت الجماهير تلقبه بأبي النبوت .

ويتحدث لوتسكي عن تذمر الجماهير في سورية وفلسطين في العقد الثاني من القرن التاسع عشر ، من أعمال السلطان التركي محمود الثاني والتي اتصفت بالاصلاحية ، حيث اتهم بالارتداد والخيانة من الجماهير المتدينة ، وقد زاد من نقمة الجماهير وسخطها وقوع عبء نفقات تنفيذ الاصلاحات على عاتق الحرفيين وصغار التجار بشكل خاص ،